حول بعث القديم

للأستاذ محمد خليفة التونسي

قرأت مقال الدكتور محمد مندور الذى نشرته الرسالة فى عددها (٥٧٢) فى «بعث القديم» وقد عنت لى عليه الملاحظات الآتية :

أولاً : ذهب الدكتور إلى أننا لم نستخدم الطباعة إلا فى سنة ١٨٢٢ ، ولا أدرى إلى أى مطبعة يشير الدكتور ، ولكنى أرجح أنه يشير إلى المطبعة التى أسسها محمد على باشا ، ولو رجعنا إلى كتب التاريخ حتى ما كان فى أيدى صبية المدارس الابتدائية فضلاً عن كتب تاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث لوجدناها تذكر أن هذه المطبعة أسست سنة ١٨٢١ وإن اختلف فى اسمها فهى تدعى المطبعة الأهلية أو المصرية أو مطبعة الباشا أو بولاق والإسم الأخير أشهرها[1]

ثانياً : ذهب فى الكلام عن الجمعيات التى تألفت لنشر الكتب — إلى أن جمعية المعارف أسسها محمد عارف باشيا وأنها لا ترجع إلى أبعد من سنة ١٨٦٠ ، وجمعية المعارف إنما أسسها ابراهيم بك المويلحى سنة ١٨٦٧ . قال الدكتور تشارلز آدمس فى ترجمته : « وأسس حوالى سنة ١٨٦٧ جمعية سماها « جمعية المعارف » لتعمل على نشر الكتب العربية القديمة . وأنشأ أيضاً مطبعة سماها باسم الجمعية لنشر مثل تلك الكتب »[2]

وذكر الأستاذ الزيات سبب إنشائها فقال فى ترجمته بعد أن ذكر إفلاسه فى التجارة ، وفشله فيما ولاه الخديو اسماعيل من مناصب : « وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع الدستور الأول فكان المويلحى ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية) ولكن آماله كانت تسفر دائماً عن الفشل، فابتغى الوسيلة إلى الرزق فى الكتابة والنشر ، فأنشأ « جمعية المعارف » لطبع الكتب القيمة وإذاعتها فى مطبعة اشتراها لنفسه »[3] واسماعيل لم يل مصر إلا فى سنة ١٨٦٣ والمويلحى لم يؤسس الجمعية والمطبعة إلا بعد وضع اللائحة الوطنية ، ومجلس شورى النواب الذى وضعت لائحته الوطنية فى وزارة شريف لم يفتح إلا فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ وهذا مما يرجح أن إنشاء الجمعية كما قال الدكتور تشارلز آدمس كان سنة ١٨٦٧ . وقد ذكر المفصل أن تأسيس المطبعة كان سنة ١٢٨٥هـ وهى توافق سنة ١٨٦٧[1]

ثالثاً : بعد أن أشار الدكتور إلى جمعية المعارف السابقة وأنها لا ترجع إلى أبعد من سنة ١٨٦٠ قال ما نصه : « إلا أن حركة البعث أقدم من ذلك بكثير فهى لم تنتظر تكوين الجمعيات لتبدأ ، ولعل انتشار الأفكار الأوربية بفضل أعضاء البعثات كان من أهم الدوافع لهذا البعث ، فرجل كرفاعة الطهطاوى قد فطن بلا ريب أثناء إقامته بفرنسا إلى أن النهضة الأوربية التى رآها قد ابتدأت بحركة بعث قوية للآداب القديمة لاتينية ويونانية ، ولهذا كان يؤمن بأن نهضة بلادنا لا يمكن أن تعتمد على النقل عن أوربا فحسب ، بل يجب أن تمضى إلى جانب ذلك ببعث القديم العربى »

وإن البعث قد بدأ قبل رفاعة الطهطاوى وليس الدافع إليه انتشار الأفكار الأوربية أولاً بل الدافع الأول الحاجة إلى ترجمة الكتب عن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، فليس انتشار الأفكار الأوربية من أهم الدوافع إذ ذاك ولا هو منها فى شىء . والترجمة بدأت على التحديد فى سنة ١٨٢٧ ، وهى السنة التى أسس فيها محمد على باشا مدرسة الطب فى أبى زعبل وجلب لها الأساتذة من أوربا وأسند رياستها إلى الدكتور كلوت بك . وكانت اللغة الشائعة إذ ذاك قد وصلت إلى منتهى ما قدر لها من الانحلال والتهافت بعد أن وسمت كل ما قدم لها من المعارف زمن الدولة العباسية ، كما كانت العلوم التى تدرس بمدرسة الطب قد تضخمت فى الغرب فغاب العربية الشائعة عن حملها إلى الطلبة الذين كانوا — من مصريين أزهريين وغير مصريين — عاجزين عن فهم ما يدرس لهم باللغات الأوربية ، وكان الأساتذة لا يعرفون العربية ولو قد عرفوها كما كانت فى عهدهم لعجزوا لقصورها وقصورهم عن إفهام طلبتهم ما يريدون ، لذلك اضطر محمد على إلى إحضار المترجمين من السوريين والمغاربة والأرمن ليترجموا فى الفصول ما يقول الأساتذة فيها بلغاتهم الأجنبية إلى العربية كيما يفهمه الطلبة . وليترجموا أيضاً ما يؤلف الأساتذة لطلبتهم من الكتب فى الطب البشرى والبيطرى والتشريح والأقراباذين ، وعلم وظائف الأعضاء ، ولما كانت العربية المعروفة عاجزة عن الترجمة اضطر المترجمون إلى الاستعانة بما وضع العرب قديماً من مفردات فنية ، وبهذا بدأ بعث القديم فى مصر . قلت

(١) الأستاذ الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » هامش ص ٤١٧ الطبعة السادسة . و « المفصل » لجماعة من الأساتذة المصريين ج ٢ ص ٣١٤ و « المجمل » لهم أيضاً ص ١٧٤

(٢) الاسلام والتجديد ترجمة الأستاذ عباس محمود ص ٢٠٢ و ٢٠٣

(٣) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤٣٩

(١) المفصل ج ٢ ص ٣٨٠

فى مصر لأنى أقيد نفسى ببعث القديم والترجمة فى مصر وحدها اعتماداً على أن الدكتور لم يتعرض لها فى غيرها فى مقاله بعث القديم، مع ملاحظة مقاله السابق «مصر الإسلامية» «الرسالة العدد ٥٧٠» ، وإن كان مما يفهم من ذلك ضمناً أن هناك من سبقوا المصريين فى بعث القديم والترجمة ، كالمستشرقين فى أوربا ، وكما وقع فى سوريا بعد أن وفدت عليها البعوث التبشيرية من البروتستنت والكاثوليك ، فقد أسسوا أول مطبعة فى أوائل القرن السابع عشر ، أى قبل أن يؤسس محمد على باشا مطبعة بولاق بنحو قرنين، كما أسس الآباء اليسوعيون مطبعتهم فى منتصف القرن التاسع عشر[1] فبعثوا بما طبعوا كثيراً من الكتب ، وقد كان المترجمون فى مدرسة الطب فى أبى زعبل من السوريين والأرمن والمغاربة — كما قدمنا — وعلى أيدى أولئك المبشرين تعلم أولئك المترجمون ، وبدأت ترجمتهم وبعثهم القديم فى مصر سنة ١٨٢٧ ؛ فإذا بحثنا عن رفاعة الطهطاوى حينئذ وجدناه فى باريس يتعلم مبادىء هجاء الفرنسية لأنه لم يبعث إلى فرنسا إلا فى إبريل سنة ١٨٢٦[2] ، وعاد إلى مصر سنة ١٨٣١ ، ولم يهتم ببعث الكتب القديمة إلا فى عهد سعيد باشا بعد أن رجع من السودان ، فأحيا قلم الترجمة بنفوذه بعد أن مات فى أيام محمد على ، وهنا ذكر الشيخ عهده بالمستشرق ده ساسى والمستشرق كوزن وما يقوم به المستشرقون من أعمال قيمة فى خدمة اللغة العربية بنشرهم أمهات الكتب ؛ فوضع مشروعاً للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة وطبعها بمطبعة بولاق ، وعرضه على سعيد باشا فأجازه »[3] ، ونحن نعلم أن سعيداً لم يل مصر إلا فى سنة ١٨٥٤ ، فإسناد الدكتور سبب بعث القديم إلى رفاعة الطهطاوى خطأ بلا ريب ، وإلصاقه به إعانه بأن « نهضة بلادنا لا يمكن أن تعتمد على النقل عن أوربا فحسب ، بل يجب أن تعنى إلى جانب ذلك ببعث القديم العربى » إلصاقه برفاعه ذلك تخرص بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، بل هو يدل على أن الدكتور فى مقاله يحوم حومان الصحفيين ويحدس حدسهم ، ولا يقع وقوع العلماء ويتثبت تثبتهم ، وإن كان ما قلناه لا ينفى أن رفاعة قد شد أزر البعث وتوسع فيه وإن لم يكن المبدع له حتى فى مصر ، ولا ينفى أنه أصبح يؤمن بعد ذلك بحاجة نهضتنا

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤١٧ ، والفصل ص ٣١٦
(٢) الأستاذ أحمد أمين . الثقافة : العددان ٢٣٠ ، ٢٣١
(٣) الثقافة : العدد ٢٣٥

إلى بعث القديم إلى جانب النقل وإن كان ما دفعه إلى هذا البعث تقليده المستشرقين فى هذا الميدان إذ كان قد صادف أيام وجوده فى باريس علمين من أعلامهم : أحدهما الأستاذ سلفستره ساسى مدير مدرسة اللغات الشرقية ، وكان واسع الاطلاع فى العربية، نشر كتباً عربية كثيرة وألف شرح مقامات الحريرى المتداول بين أيدينا وقد توفى سنة ١٨٣٨ ؛ وثانيهما الأستاذ كوزن وقد نشر كثيراً[1]

فرفاعة إذن لم يبدأ البعث إلا مقلداً المستشرقين ، وذلك بعد تأسيس مدرسة الطب بنحو ثلاثين سنة وقبل تأسيس المويلحى جمعية المعارف بنحو عشر سنوات

رابعاً : وإذا رجعنا إلى صدر الفقرة السابقة لم نجد مفراً من الجزم بأن آثار البعث قد ظهرت فى النثر قبل ظهورها فى الشعر . فالبارودى الذى يمثل أول أثر البعث فى الشعر لم يكن قد ولد حين نهض النثر ليحمل تراجم تلك الكتب ، فالبارودى لم يولد إلا سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥ هـ) بينما الكتب التى ترجمها وألفها المترجمون كالمسيو عنحورى والمسيو رفائيل وغيرهما تبدأ قبل مولد البارودى بنحو اثنتى عشرة سنة ، والكتب التى ترجمها وألفها رفاعة وأصحابه وتلاميذه بدأ ظهور بعضها قبل سنة ١٨٣١ حين عاد رفاعة إلى مصر وظهر كثير منها والبارودى لم يولد وبعضها وهو ملفوف فى أقمطته إذ كانت مدرسة الألسن قد أسست برياسة رفاعة نحو سنة ١٨٣٤ وما أسرع ما نبغ كثير من تلاميذه فى الترجمة والتأليف مثل عبد الله أبو السعود واحمد عبيد وخليفة محمود[2] فألفوا وترجموا كثيراً من الكتب ، ولا ريب أن هذه الكتب التى ظهرت قبل شعر البارودى كانت تكتب نثراً لا شعراً ، ولا ريب كذلك أن نثرها — وإن لم يبلغ مبلغاً عالياً من البلاغة — يرتفع كثيراً عن نثر الجبرتى والشرقاوى ، وغيرهما قبله وإذن فالنثر قد تأثر قبل الشعر ببعث القديم لا كما زعم الدكتور فى مقاله وكرر زعمه مرتين من أن الشعر تأثر ببعث القديم قبل النثر ، ولكن لا مفر لنا من تقييد النثر الناهض بأنه النثر التأليفى وليس النثر الفنى أو الأدبى، وإن كان هذا لا ينفى أن النثر الأدبى أيضاً قد استمد من بعث القديم مادة غزيرة للفكر ، وذلك لأن نواة النهضة الثقافية فى مصر هى العلوم التى كانت تدرس فى مدرسة الطب بأبى زعبل . وفى ذلك قال الزيات : «لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم»[3]

خامساً : قال الدكتور : « فى الحق إننا لا نعرف أسلوباً يتميز به الأدب الحديث بأضيق معانيه غير أسلوب القصة ، فهى

(١) الثقافة : العدد ٢٣٢ ، والفصل ص ٤١٢
(٢) الثقافة : العدد ٢٣٤ (٣) تاريخ الزيات ص ٤٢٤

أكبر مظهر من مظاهر الأدب الحديث ، وليس بخاف أن القصة حديثة العهد ببلادنا ، وهي بمجرد ظهورها أخذت تغذى السجع بمادة الفكر وتنقله من التفاهة إلى الجد ، وهذا واضح من حديث عيسى بن هشام ، فأسلوب المويلحي برغم حرصه على أوجه العبارة البلاغية لا يخلو من فكر وإحساس صادقين ، وذلك لأن القصة بطبيعتها تقدم للكاتب مادة ، وكل مادة تحتاج إلى العبارة عنها ، فيأتي الأسلوب محملاً بتلك المادة . ومنذ أن خطا أسلوب النثر تلك الخطوة أخذ يشيع في غير القصص حتى امتد إلى المقالة أو الموضوع القصير » ونلاحظ أولاً في عبارة الدكتور أنه استعمل الأسلوب بمعنى القالب فسمى القصة أسلوباً ، وخير أن نسمي قالباً ونسميها هنا كذلك ، واستعمل الأسلوب بمعنى طريقة التعبير ونحن نوافقه على ذلك ، ثم نذكر أن عبارته تشتمل على قضيتين : الأولى أن القصة هي التي غذت السجع بمادة الفكر ونقلته من التفاهة إلى الجد ، ويستشهد على ذلك بحديث عيسى بن هشام للمويلحي . والقضية الثانية أن مادة الفكر قد أثرت هذا الأثر في القصة ثم في المقالة أو الموضوع القصير

أما عن القضية الأولى فإننا نعلم من تاريخ ابراهيم المويلحي أنه لما عاد من الآستانة إلى مصر سنة ١٨٩٤ أو سنة ١٨٩٥ أسس جريدته الأسبوعية مصباح الشرق ، وقد قال فيها الزيات : (هي صحيفة أسبوعية كان يديجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ، ويرسلها بالسهام النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة ، فقضت حاجة في نفوس الأدباء ، ونهجت لهم الطريق السوى في الإنشاء ، ووطأت له هو أكناف الرؤساء والكبراء ، واستمر على إصدارها حتى حان يوم وفاته)[1]

وذكر في الفصل أنها « كانت نموذجاً من أعلى نماذج الأدب الحر في هذا العصر ، يتطلع إليها المتأدبون في شوق ولهف لما تطالع به من مصفى الكلام ومنتقاه ، وأبدع البيان وأحلاه في أبواب السياسة والعلم والفلسفة والأدب ، ويترقبها الكبراء في قلق ووجيب قلوب ... فلقد كان المويلحي أقدر كتاب العربية على النقد وأصرهم وأوجعهم ... وكان يعاونه في تحرير هذه الصحيفة الفذة ولده الأديب الكاتب العالم محمد بك المويلحي وهو الذي كان يكتب رسائل (حديث عيسى بن هشام) التي سويت بعد كتاباً »[2] وأريد أن أقف هنا ولا أرجع القهقرى الآن لأسأل الدكتور : أكان ما تنشر هذه الصحيفة في العلم والفلسفة والاجتماع والأدب والنقد كلاماً فارغاً من المعاني ، ولم تكن تحتوي على المادة الفكرية فيها إلا رسائل حديث عيسى ابن هشام وهي لا تخرج في مضمونها عن النقد ، وقلم ابراهيم المويلحي الذي كان يرسل بالسهام النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة ، فيترقبه الكبراء في قلق ووجيب قلوب ، أبقى هذا القلم لا يكتب إلا اللغو حتى جاء الابن محمد فزوده بمادة الفكر ونقله من التفاهة إلى الجد ؟ أيهما أكبر يا سيدي جحا أم ابنه ؟ وأيهما علم الآخر النقد : الآب أم الابن ؟

ولنرجع إلى ما قبل ذلك مع المويلحي الأب حين أصدر هو وعثمان جلال صحيفتهما (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ ، وكانت شديدة اللهجة فلم يلبثها اسماعيل باشا حتى ألغاها . فهل كان ما تكتب هذه الجريدة كلاماً خالياً من الفكر حتى يلغيها اسماعيل ؟ وأسأل الدكتور ثانياً هنا : أكان الابن محمد قد ولد في هذا الوقت أم لم يولد؟

أحسبك هذا يا سيدي أم تريد التوغل إلى الوقائع المصرية التي أسست سنة ١٨٢٨ ، وما كانت تنشر من بحوث علمية وأدبية واجتماعية وفلسفية ودينية وقانونية منذ أسست ، لأنها لم تكن قبل كما نراها اليوم قاصرة على الأمور الرسمية ، بل كانت تتسع لكل ما تتسع له جرائدنا اليوم ، فقد كتب فيها رفاعة وأصحابه وتلاميذه ومحمد عبده وتلاميذه ، ثم صحيفة « اليعسوب » الطبية التي أنشأها محمد علي البقلي باشا سنة ١٨٦٥ وجريدة وادي النيل التي أسسها عبد الله أفندي أبو السعود سنة ١٨٦٥ ومجلة (روضة المدارس) التي أسست سنة ١٨٧٠ ، وفيها يقول المفصل : « كانت تفيض بسابغ الفصول فيها أقلام أئمة العلم والأدب من أمثال رفاعة بك وعلي مبارك باشا وإسماعيل باشا الفلكي والشيخ حسين المرصفي وعبد الله باشا فكري ، والواقع الذي لا مرية فيه أن هذه المجلة كانت مما نفخ في روح النهضة اللغوية والأدبية في هذه البلاد »[1] ، وفيها قال الزيات : « مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب »[2]

وما ألف وترجم رجال الثقافة في مصر في القرن التاسع عشر من كتب في العلوم المختلفة إلى منتصف العقد العاشر قبل تأسيس مصباح الشرق . أكل أولئك كان لغواً من القول وزوراً حتى ظهرت القصة وهي المعجزة السحرية التي أجراها الله على يد محمد المويلحي في حديث عيسى بن هشام ، فأخذت كما قلت : تغذى السجع بمادة الفكر ، وتنقله من التفاهة إلى الجد ، وهل خفي على الأستاذ وهو يتعرض لتاريخ الثقافة في العصر الحاضر أنها بدأت علمية ؟

(١) تاريخ الزيات ص ٤٤٠ (٢) المفصل ج ٢ ص ٣٨٦

(١) المفصل ج ٢ ص ٣١٩ (٢) تاريخ الزيات ص ٤١٩